Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 32:2 (1996)

أشهر شعراء العربية فى شبه القارة الهندية الباكستانية

غلام على آزاد البلكرامى

سيد رضوان على الندوى

العلامة غـلام علـى بـن نـوح الحسينى الواسـطى البلكرامـى، أشهر أدباء العربية وشعرائها فى شبه القارة الهندية عـبر القـرون كمـا هو أول مؤرخ للثقافة العربية والفارسية فى الهند الإسلامية. ولد غلام على آزاد البلكرامى فى ١١١٦هـ(١)/١٧٠٤م فى بلدة بلكـرام. وهـو ينتمى إلى الأشراف الزيدية الحسينية الواسطية، وقرأ الكتب الدراسـية على السيد طفيل محمد البلكرامى، ثم أخذ اللغة والحديـث والسـير عن جده لأمه عبدالجليل البلكرامى، كما تحدث بذلـك فـى ترجمتـه الذاتية فى مؤلفاته(٢) وقضى فترة شبابه فى بلدة بلكرام. وأخذ الطريقة الصوفية من أحد مشايخها، وهو الشيخ لطف الله الحسينى.

وخرج فى سنة ١١٥٠هــ لسفر الحج ماشيا علـى الأقـدام. ودون أن يخبر بذلك أسرته. وقد تحدث عن ذلك فى كلمات لطيفـة فى ترجمته الذاتية،(٣) وبقـى آزاد البلكرامـى فـى الحرميـن الشـريفين

نحو سنتين. ودرس الحديث النبوى فى المدينة المنورة على الشيخ محمد حياة السندى شارح الصحيح للبخارى، كما درس فى مكة المكرمة على الشيخ عبدالوهاب الطنطاوى المصرى المتوفى سنة ١١٥٧هـ. وقد أعجب بلقبه الشعرى آزاد (بمعنى الحر) وقال له أنت من عتقاء الله.

وقد عاد غلام على آزاد فى أواخر سنة ١١٥٩هـ إلى الهند، ولكنه لم يذهب بعد عودته إلى بلدة بلكرام، بل توجه إلى مدينة أورنك آباد فى جنوب الهند وسكن فيها، وقامت بينه وبين الأمير نظام الدولة ناصر جنك ابن حاكم حيدر آباد نواب آصف جاه، أواصر الصداقة، والمحبة والاحترام المتبادل. وظل فى تلك المدينة إلى أن وافته المنية.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يستغل صلته بالأمير ناصر جنك لأية مآرب دنيوية على الرغم من حثّ بعض أصدقائه على ذلك بل عندما تولى الإمارة، أبى ذلك، قائلا: "مثل هذه الدنيا مثل نهر طالوت غرفة منها حلال والزيادة عليها حرام".(٤)

ويدل ذلك على أنه كان ورعا زاهدا فى متاع الدنيا أبيّ النفس ولعل سبب ذلك تربيته الصوفية الأولى فى الطريقة الجشتية الشهيرة من ناحية، وانصرافه إلى حياة العلم والتصنيف والتأليف من ناحية أخرى.

وكان غلام على آزاد البلكرامى شاعرا، أديبا، مؤرخا. ومعظم مؤلفاته فى تاريخ الثقافة الإسلامية فى الهند، ولكنه ألف أيضا فى

الحديث النبوى، فله كتاب الضوء الدرارى شرح صحيح البخارى إلى آخر كتاب الزكاة. وهو كما يقول صاحب نزهة الخواطر ملخص من شرح القسطلانى لصحيح البخارى، ألفه فى الحرمين الشريفين.(٥)

وأهم مؤلفاته ماكتبه عن علماء شبه القارة وشعرائها وأدبائها وصلحائها، ومنها ماهو بالعربية والأخرى بالفارسية، وأشهر كتبه فى هذا المجال "سبحة المرجان فى آثار هندوستان" باللغة العربية. وهذا الكتاب فى أربعة فصول، "الفصل الأول: فيما جاء فى ذكر الهند فى التفسير والحديث والفصل الثانى: فى ذكر العلماء، والفصل الثالث: فى محسنات الكلام، والفصل الرابع فى المعشوقات والعشاق. وهو أول كتاب ألف فى تراجم علماء الهند الإسلامية وعلومها باللغة العربية، وقد طبع فى بمبائ سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م على الحجر فى مجلد واحد. وقد ظهرت له طبعة محققة فى سنة ١٩٧٦م بتحقيق الدكتور فضل الرحمن الندوى. ولكنه يضم الفصلين الأول والثانى فقط. ويقول محققه أنه حقق الكتاب كله، ولكن لم يتيسر الطبع إلا لنصف الكتاب. ولا شك أنه بعمله هذا قام بخدمة كبيرة لدارسى الثقافة الإسلامية فى الهند، فإن الطبعة الأولى القديمة كانت قد أصبحت عسيرة المنال.

وأهم ما فى هذا الكتاب تراجم العلماء والصوفية والشعراء والمؤلفين، وهى أربع وأربعون ترجمة وفى نهايتها ترجمته الذاتية فى إحدى عشرة صفحة، وقد ألفه فى سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م أى قبل

وفاته بثلاث وعشرين سنة، وذكر فيه ما ألفه حتى ذلك الوقت من مؤلفات فى العربية والفارسية ودواوين شعرية ومنها "تسلية الفؤاد"(٦) وهى قصائده بالعربية.

ومن مؤلفاته الأخرى فى العربية شفاء العليل فى إصلاحات كلام أبى الطيب المتنبى(٧) وله بالإضافة إلى ذلك عدد من الدواوين الشعرية. وأما مؤلفاته الفارسية فى تراجم الشعراء والفضلاء والصوفية الصالحين، فهى ذات فوائد جمة ومعروفة فى الهند وهى: "يد بيضاء" و "سرو آزاد" و "خزانة عامرة" و "مآثر الكرام فى تاريخ بلكرام" و "روضة الأولياء" (وهو فى تراجم صلحاء أورنك آباد).

وقد قلنا أنه كان شاعرا مجيدا فى اللغتين العربية والفارسية وكان يسمى حسّان الهند لقصائده الغرّاء فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وله دواوين شعر عديدة فى العربية، وبعض منها مخطوطة و أخرى منها مطبوعة، وجمع سبعة منها فى مجموعة سماها "السبعة السيارة"، وطبع ثلاثة منها فى حيدرآباد الدكن على حجر، والديوان الأول منها كلها قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما الديوان الثانى يشتمل على قصائد غزلية، والديوان الثالث يحتوى على قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأخرى غزلية وبقية الدواوين تشتمل على قصائد ومقطوعات شعرية، ورباعيات ومخمسات وغير ذلك ومجموع الدواوين الشعرية عشرة دواوين. ولها عدة نسخ كاملة محفوظة فى مكتبة دار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ، ومجموع أبيات هذه الدواوين العشرة ١٢٥٠٠ بيت(٨).

ومن الجدير بالذكر أنه كان يعطى لبعض هذه الدواوين أسماء خاصة بها. فالديوان الرابع اسمه "المردف": أي أنه اهتم فيه برديف، والخامس منها ديوان "المستزاد". والديوان التاسع سماه "تحفة الثقلين" وهكذا.

ويجدر بالذكر أنه كثيرا ماكان يذكر تواريخ لتأليف دواوينه، ويبدو من تتبع تواريخ هذه الدواوين أنه نظم معظمها وألفها فى أواخر حياته[٩].

وبالإضافة إلى هذه الدواوين العشرة، نظم البلكرامى مجموعة من المزدوجات على طريقة الشعر الفارسى المعروف بمثنوى، وسمى كل واحد منها الدفتر، وهى سبعة دفاتر وجمعها فى مجموعة سماها "مظهر البركات" وهى عبارة عن حكايات وقصص أخلاقية وصوفية ذات مغزى دينى ونظمها على نمط "مثنوى" لمولانا جلال الدين الرومى وهو فى مجموعها نحو ٣٧٠ بيت. وقد طبع فى حيدرآباد قبل ١٩٠٠م[١٠].

وله قصيدة طويلة فريدة فى وصف أعضاء الحبيب، من الرأس إلى القدم، مع ذكر مواد الزينة وبعض الحلى التى تستعملها النساء. وسماها "مرآة الجمال" وهى ١٠٠ بيت. وقد طبعت مع "مظهر البركات" و فى غيرها من المجامع الشعرية بأقلام غيره من الأدباء.

ويبدو من تتبع شعره أنه كان شاعرا موهوبا، وله قدرة فائقة فى نظم الشعر بحيث كان ينظم قصيدة كاملة أحيانا فى يوم واحد. كما كان يملك خيالا خصبا، فيبتكر المعانى فى قصائده الغزلية

ومقطوعاته الشعرية. وظهر إبداعه فى قصائده فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة. ويبلغ عدد أبياته عشرين ألف بيت. فإضافة إلى ماضمته دواوينه الشعرية المختلفه توجد له قصائد ومقطوعات شعرية فى كتابه "سبحة المرجان" وغيره. ومن ميزاته أنه كان مغرما باستخراج التواريخ لأحداث معينة فى حياته أو تواريخ بعض مؤلفاته فى جمل لطيفه أو أبيات شعرية: فاستخرج تاريخ سفره للحج بكلمة "سفر خير" (١١٥٠هـ).

وهو يكتب نثرا جيدا بليغا مرسلا خاليا عن التكلف والصنعة التى غلبت على عامة مؤلفى الهند بسبب سيطرة أسلوب الحريرى على أقلامهم، ولعل السبب فى ذلك إقامته لحوالى سنتين فى الحرمين الشريفين. واختلاطه بعرب البادية فى الحجاز. وخير مثل لأسلوبه فى كتابة النثر العربى كتابه "سبحة المرجان"، ويلجأ فيه أحيانا قليلا إلى كتابة النثر المسجوع المقفى، ولكنه من باب الزينة يرصع بها كلامه.

وقد قدمنا بعض نماذج شعره فى آخر هذا البحث فليرجع إليها. ونكتفى هنا بذكر بعض أبياته. فمن جيد شعره قوله:

برق أضاء من الزوراء يشجينى
يارب ما باله يبكى ويبكينى
أنى لسان يؤدى شكر أنعمه
بالماء والنار يروينى ويورينى

هويت حسناء أسعى فى إراحتها
وتلك فى غايـة الإيذاء تؤذينى
لايذهب الغل ماء المزن من كبدى
بل ماء ياقوتة اللمياء يروينــى
تـدور فـى مقلتــى أيام لقيتهـا
هل مـــا مضى من زمان العمر يأتينى
طيف الذى قتلتنى يوم ذى سلم
إن جـاءنى فـى منـام الموت يحيينى
لا أبتغى أن ترانى ملأ مقلتهـــا
لــحظ قليل مـن العينين يكفينى[١١]

ومنه قوله:

نار الهوى فى الحسن تشعل أولا
ورى السراج من الفــراشــة أسبق
أمسكت عما فى فؤادى مقولى
ولســان حــالى بالــسرائـر أنطــق
أو تدعى الورقاء جاهى فى الهوى
لأنـــا العشــوق و ذلك المتعشــق
لهب الغرام مقيد فـى مهجتــــى
والدمـع فى العين البكية مطلـــق
جنّ الظلام ولا مفـر من الدجـى
ياليــت بـارقــة الحمــى تتألــق[١٢]

وتوفى غلام على آزاد البلكرامى فى أورنك آباد فى سنة ١٢٠٠هـ وأرخ بعضهم تاريخ وفاته بكلمة "آه غلام على آزاد"[١٣].

قصيدة "مرآة الجمال"[١٤] لغلام على آزاد البلكرامى

مطلق الحسن

لي ظبية من أبرق الحنـــان　　مـن مثلها فى عالـم الامكان

شمس تباهي بالسنا أمة لها　　وكواكب أخرى من الغلمان

الضفيـــرة

أضفيرتان على بياض خدودها　　أوفى كتاب الحسن سلسلتان

أو ليلـة العيـدين أقبلتـا معـا　　أو مـن قصائد هم معلقتـــان

الـجبهـة

اللّه جبهته المضيئة فى الدجى　　وهـب الإلـه له علـو مكان

هى نصف بدر كامل لكنهـا　　تربى على القمرين فى اللمعان

الحـاجب

أبصر حواجبها وأدرك كنهها　　غصنان منحنيان وسط البان

أو كافران يشاوران ليوقعـــا　　آمـالنـا فى موقع الحـــرمان

الـعـين

طرفا الحبيبة ما كران تمارضا　　وتـغـافلا عن رؤية الجيـران

أو نرجسان على غصين واحد　　وهـمـا بمـاء مسكر نضـران

الـــهـــدب

أهداف حسناء الأبيرق مروح　　متحـرك لـتـروح الـكسـلان
أو حذو انسان العيون ستـارة　　جعلت معلقة من الأجفـــان

اللـــحـــظ

لحظ المهاة فتورها مستحسن　　يحكى أريج النرجس الريان
ترنو ونحن نخاف فتنة طرفها　　وقع المهند فى يد السكران

الـــكحـــل

أنظر إلى كحل على أهدابها　　هــو جوهـر لمهند ويمـــان
أو أبدع النقاش خطا حالكا　　ليزيد رونق دورة الفنجـــان

الأنـــــف

الأنـف سد بين طرفيها نعم　　هــذان سيافـان مختصمـان
محراب حاجبه بنــاء رائق　　وهــو العمـاد لذلك البنيـان

الـــفـــم

وفم الحبيبة حقة محـمـرة　　فيهـا لآلي المـاء والتبيـان
يـاقــوتة مثـقـوبة لكنهـــا　　بالثقب خالية عن النقصـان

الـــشـــفـة

شفة الفتـاة عقيقة يمنيـــة　　تشفـى مويهتها صدى الظمأن
رطبان كل منهما ذو حمرة　　مـتفاخـر باللـون والحلـوان

وهكذا وصف جميع أعضـاء جسـدها مـن أعلـى الـرأس إلـى القـدميـن إلـى أن ختـم قصيـدته تلك قـائلا:

سميت مرآة الجمال قصيدتى طابت برؤيتها قلوب حسانى
ما إن سمعنا مثلها عن شاعر آزاد للطراز المنشط بانى
صلى الإله على النبى وآله ما غنت الأطيار بالألحان

قال ممتدحا له صلى الله عليه وسلم من الديوان الأول للسيد غلام على آزاد بلكرامى (٣٧-٣٨)

لله مائسة كغصن الصندل
أرجت برياها حواشى المحفل
إضمية[١٥] نشرت روائح مسكها
فشفت[١٦] من الخفقان قلب مؤمل
سمراء معتدل القوام كأنها
قصب وسكره حلى[١٧] تدلل
إن أبصر الطاووس زينة نومها
يخفض لحضرتها جناح تذلل
يا حبذا أن حمنّى لهب الهوى
أن السعير لجنة لسمندل
أين النسيم متى يجئ عناية
حتى تعطرنى بنفحة سنبل
قولوا له أنت الكريم المرتجى
فاسمح بنكهة عنبر وقرنفل

أملت من قلب الحسان جوى الهوى

وطمعت[١٨] فى شيئ عجيب مشكل

فيه البرودة كالطباشير الذى

تحويه أجواف القُنِىّ الذُبّل[١٩]

بل ذاك الماس ثمين صلب

ما لان قط على الغريب الأرمل

ياصاح فيم نحوم حول المنحنى

والرقمتين ورامتين وحومل

اتميل قلبك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

الابطحى الهاشمى محمد

خير البريات النبى المرسل

شجر ترعرع فى حديقة هاشم

أكرم بدوح فى العلا متأصل

أثماره ممتازة عن غيرها

يفشى السفرجل مابسر الحنظل

فرد جليل لا يشاهد مثله

فالله رؤيته شفاء الأحول

هدم الاله حصون من جحد الهدى

ووفى النبي عن العدى فى العنظل[٢٠]

جعلت له شم الرواسى عسجدا

مـــا عدها قطعا لحبة خردل

جـاز الثرى ثم الثريا عارجـا

حتـى أتـانـا بالطريق الأسهل

قد خلص البيت الحرام عن العدى

لقنـــاته مفتـاح بـــاب مقفـل

فاضت بأوصاف النبى يـراعتـى

بحـر النبوة أصل هذا الجـــدول

آزاد عبــد مـادح لك راجـيا

من سوحك الفيحاء حسن تقبل

صلى الإله على الرسول المجتبى

مـا أرج الأرجاء عرف المندل

وعلى أقـاربه الـذين تطهروا

وعلـى صحابته الكرام الكمل[٢١]

٢ ج ـ وقـال متـغـزلاً[٢٢]

أحي بحب الغيد فى العمـــران | وبـرؤية الغـزلان فـى القيعـان

لا عيش إلا أن تحب خـــريدة | واهـا لعيشـة صـاحب السلـوان

ذكى الفراش بقلبه نار الهـــوى | وهـوى سقـاه الله فـى النيـران

رحـم الإله حمامـــة حنانـــة | هـى طـوقت بمـحبة الأغصـان

هم(٢٣) بالحسان فان عدتنا غدا … أيضا لقاء الحور والغلمان
قلبى خليع لا يفيق عن الهوى … هذا طحا بى يوم ذات البان
لا تطلبونى فى الحضارة أننى … لأنست فى الفلوات بالغزلان
أو تمنعون من المدامع مقلتى … فيض السحائب فى يد الرحمن
قلبى كواه الأمس ميسم حبها … لا تحسبونى شقائق النعمان
عشاق عزة حاضرون لعالج … من بينهم مثلى على الهيمان
أحبب ولا تفعل خلاف مزاجها … خير الهوى ما كان بالميزان
يا أيها اللمياء أنت طبيبتى … هل تطفئينى لواعج الظمآن
كسرت فؤاد المستهام يد النوى … إن تجبرى فنهاية الإحسان
أهدى إلى جرح المتيم مرهما … جبر الكسير رجابة الانسان
أنا فى جوارك للعناية راقب … رسم الكرام رعاية الجيران
شرف مجيئك يا سعاد فشرفى … بيت الفقير بدولة الإتيان
يرجو عنايتك الكريمة آمل … لا تحرقيه بميسم الحرمان
لاتطردينى عن جنابك جفوة … أنا مخلص فى السر و الإعلان
أو تشتمين على رؤوس جماعة … لاتفضحى المسكين فى الإخوان
لا زمت سدتك السنية مدة … فجعلتنى فى قاعة النسيان
شاهدت ساجعة على يدصائد … نقلت إلى قفص من الأفنان
قالت تفجر دمعها متسلسلا … هذا جزاء العيش فى البستان
آزاد فى سرح النبى المجتبى … متمتع بالروح والريحان

هـــــوامـــش

١- هذا هو تاريخ ولادته كما في كتابه **سبحة المرجان** في ترجمته الذاتية ص ٢٩٩، وكذلك في **مآثر الكرام** ٢٢٩ وكذلك في معظم المراجع، وفي **نزهة الخواطر** ١١١٠هـ وهو خطأ ص ٢٠٤.

٢- **سبحة المرجان** ص ٢٩٩، **مآثر الكرام** ص ٢٢٩.

٣- **سبحة المرجان** ص ٢٩٩- ٣٠٠.

٤- **سبحة المرجان** ص ٣٠٨.

٥- **نزهة الخواطر** ٢٠٤/٦.

٦- منه نسخة في مكتبة عارف بيك حكمة كما ذكره زبيد أحمد في كتابه ص ٤٨٢، دون ذكر رقم المخطوط.

٧- كذا اسمه في مقدمة فضل الرحمن الندوي باللغة الإنكليزية على **سبحة المرجان** لآزاد البلكرامي ص ١٢، وزبيد أحمد ص ٤٧٣، وأما اسمه عند دكتور جميل أحمد فهو **شفاء العليل في المؤاخذات على ديوان المتنبي**.

٨- انظر لمخطوطات هذه الدواوين مقدمة **سبحة المرجان**، الطبعة الجديدة بقلم محققه الدكتور فضل الرحمن الندوي باللغة الإنكليزية ص ١١.

٩- وأنظر لهذه التواريخ مقال آزاد بلكرامي في **اردو دائرة المعارف إسلامية** ١٠٧/١، و الدكتور جميل أحمد، **حركة التأليف** ص ١٣٢، ومقدمة فضل الرحمن الآنف الذكر ص ١١.

١٠- **حركة التأليف باللغة العربية** للدكتور جميل أحمد، ص ١٣٢.

١١- **نزهة الخواطر** ٢٠٧/٦.

١٢- ديوانه الثاني ص ٣٧.

١٣- **نزهة الخواطر** ٢٠٧/٦، وانظر ترجمته في **سبحة المرجان** ٢٩٨-٣٠٩، **ومآثر الكرام** ٢٢٩-٢٣١-٢٧٨-٣٨٣، **أبجد العلوم** ٢٥٠/٣-٢٥٢، وفيه أنه توفي سنة ١١٩٤هـ وهو خطأ، وكذلك أخطأ في إحصاء أبياته، **تذكرة علماء الهند** بالأردية ص ٦٣٢، **نزهة الخواطر** ٢٠٤/٦-٢٠٧،

أردو دائرة المعارف ١/١٠٤-١١٠، **حركة التأليف** .... ١٣٠-١٤١، **الأعلام** للزركلي ٥/٣١٤.

١٤- نقلا من "**نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان**" لصديق حسن خان القنوجي بهوبال، ١٢٩٤هـ، ص ٧٨-٨٥، وهي مئة وخمسة أبيات.

١٥- إضمية نسبة إلى إضم، وهو الوادي الذي فيه مدينة النبي صلى الله عليه وسلم كما في **القاموس**....

١٦- في الأصل : فشفقت، وهو خطأ وينكسر به البيت.

١٧- حلّي على وزن فعيل بمعنى حلو.

١٨- في الأصل : وطمت ولا معنى له.

١٩- في الأصل: الذيل، ولا معنى له، الذبّل جمع ذابل بمعنى الجاف واليابس.

٢٠- في الأصل: العنظل بالغين المعجمة، وهو خطأ ، والعنظل كجندل بيت العنكبوت.

٢١- **ديوان آزاد** ص ٣٧- ٣٨.

٢٢- من الديوان الثاني له، ص ٥٠- ٥١.

٢٣- فعل أمر من هام يهيم بمعنى أحب.

المراجع

١- **سبحة المرجان**، لغلام علي آزاد البلكرامي، طبعة جديدة بتحقيق الدكتور فضل الرحمن الندوي، جامعة علي كره، الهند، ١٩٧٦م.

٢- **مآثر الكرام**، لغلام علي آزاد البلكرامي، (بالفارسية ترجمه إلى الأردية محمد خالد فاخري)، كراتشي، ١٩٨٢م.

٣- **الدواوين**، الأول والثاني والثالث لغلام علي آزاد البلكرامي ، حيدر آباد ـ الهند.

٤- **أبجد العلوم**، لصديق حسن خان، دمشق، ١٩٧٨م.

٥- **نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان**، لصديق حسن خان، بهوبال ـ الهند، ١٢٩٤هـ.

٦- **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، للشريف عبدالحي الحسني، ١٨ أجزاء، حيدر آباد ـ الدكن، الهند، ١٩٦٢-١٩٧٣م.

٧- **تذكرة علماء الهند**، لرحمن علي (بالفارسية وترجمه إلى الأردية محمد أيوب قادري)، كراتشي، ١٩٦١م.

٨- **حركة التأليف**، باللغة العربية في الإقليم الشمالي بالهند.. للدكتور جميل أحمد، دمشق .

٩- **الأعلام**، لخيرالدين الزركلي ، الطبعة الثالثة ـ بيروت.

١٠- **اردو دائرة معارف إسلامية**، فقال غلام علي آزاد، جامعة بنجاب، لاهور.

★★★